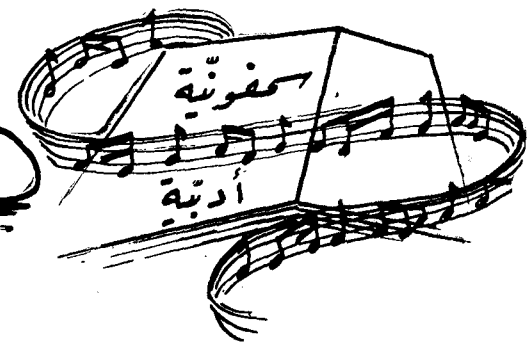

البحر

بقلم الدكتور شكري فيصل

ودمدمت موجة ناعمة .. كانت هذه الدمدمة العذبة في الماء الملح ، كما تكون بعض الانغام الهادئة الاولى في قطعة موسيقى تحمل الناس على اول الطريق من طرق الانعتاق من الدنيا ، والارتفاع عن جلبتها اليومية الرتيبة ، وتحاول ان ترمي ما على اكتافهم من بعض الاثقال التي ينوءون بها .. تحاول ان ترسب في نفوسهم الكدر الذي يحيل صفاءها عتمة او ظلال عتمة ، ونورها غبشا ، والقها غسقا .. كانت هذه الدمدمة الهادئة ، كما تخالط حمرة الخجل الوجه الناصع : تتغلغل فيه ولكنك لا تستطيع ان تعرف مكانها منه ، وتكسوه ولكنها جزء منه ، ويتشربها هذا الخد الصقيل حتى لكأنه بعضها ، وانت لا تدري أهي منه ام هو منها ، ام هما كذلك ـ كما هما النصاعة والحمرة هنا ـ منذ اراد الله بعض آياته في الخلق دليلا عليه

ووجدت لهذه الموجة في اذني الصدى .. ثم في قلبي الاسترواح لها والاقبال عليها .. انا كذلك كنت احمل ، لا ادري أين : في قلبي ، في ذهني ، من هنا أوهنا على كتفي ـ مواجدي وأشواقي وتطلعي البعيد .. وانما جئت هنا ، هذا الساحل ، بعد ان احسست العجز عن ان استطيع احتمال كل الذي القى ، واستيعاب كل الذي أشهد ... كانت « روما » تضج في ذهني ... كانت كانما كل حجر مصقول فيها ينبض في داخلي .. كنت اسمع كل ضربة أزميل واتماوج مع كل موجة لون ، وتسبح بي اللمسة الخفيفة في لوحة من لوحات « انجلو » والاعمدة الضخمة في « سانت بيير »، والفخامة العريقة في « البانتيون » على السواء .. أثقلني كل الذي رأيت ، كل الذي احسست او ادركت في روما ... وكأنما كان في اعماقي لهب من كل نحو : لهب الشوق ، لهب المعرفة ، لهب الفن الذي اصطليت به في برد هذه الغربة ، لهب الربيع المشوق الذي وجدته هنا من الشمال الى روما اشجارا من زهر « الدراقن » كأنما هن من ايحاء عذارى الخلد ، وبراعم من زهر التفاح تستبق فيه الحمرة والبياض وخضرة الورقة المطيفة بهما الى التفتح وسماء في صحو وغيم ومطر وشمس ، وأنسام هي انداء وطيوب ، وبلل وعطر .. أثقلني كل الذي رأيت .. كان يعج في اعماقي ، كما تعج الدنيا هنا بالفن من كل عصر ، فجئت الى هذا الساحل ، أخلو ، واصنع كل الذي وجدت في مكانه من نفسي ، واتطلع من قريب الى الافق البعيد .

*

ووراء الموجة التي انسابت ثرثرة ، وفنيت زبدا ، كنثار الفضة ، كانت تهدر من بعيد موجة اخرى .. في هديرها هذا البعيد الضخم ارتسمت من امامي قبة « البانتيون » ، واختلط الضوء المنسكب من اعلى القبة ، الذي يرتسم على مرمر الارض انوار ، بالهدير المتتابع من اعماق الموجة من بعيد .. واتحد الشكل هنا والصوت هنا .. لكأن الشكل كان تجسيدا للصوت .. لكأن الصوت كان صهرا للشكل وانشادا جديدا له في هذا اللحن القوي ، الهادر ، الضخم .. ووجدتني مع الموجة أنطلق ، كأنما ينبع من نفسي ، من كل هذا الذي في نفسي ، انسان آخر بدائي ، عفوي ، ساذج .. لم يلاحق الروائع في « فلورنسا » ولا المتاحف في «الفاتيكان» ولا بدائع الرخام في «روما» .. انسان لم تثقله القباب التي ثمرت فن الانسان وجهده ، ولا الزجاج الملون الذي يقص القصص ويروي ، من خلل الضوء ، الاساطير ، ولا « الموزاييك » المرصوف ، نبضة نبضة ، يحكي اخبار القديسين ورؤى المتعبدين .. انسان عفوي لم يثقله نتاج العصور القديمة العنيفة بصفائها وجلالها واضوائها المتدفقة ، ولا ثمرات ما قبل النهضة بتطلعها ومحاولاتها ، ولا خوالد عصور النهضة ، ولا تردي عصور « الباروك » .. انسان فيه كل صفاء الانسانية من غير ان يكون فيه ارهاقها وقيودها ورموزها وتعقدها .. فيه خلاصتها من السمو والانطلاق وان لم يكن فيه كل تفاصيلها من خطى التطور

ومضت الموجة تهدر في خفة ... تعلو .. وتهبط ... ولكنها تتقدم دائما نحو الشاطيء .. كما يحاول الجيل من وطني ، هناك ، ان يتقدم ... ثم تتوزعها هذه الصخور الازلية القائمة هنا ، وتشرب منها ، هناك ، هذه الرمال التي تسعى بين الشمس والبحر .. وتتناثر قممها ، وينبعث منها الرذاذ ، حبات من ضوء ... ويكون لها على هذا الحاجز الحجري القائم صرخة وتحد ... تتحداه ، ولكنها

لا تفني عنده ... لانها تنسرب فى الاعماق لتنبعث مرة اخرى موجة فنية جديدة تهدر من بعيد .. اتراها هذه الموجة التي انطلقت من هناك من « الجزيرة » وتكسرت هنا على « الالب » !

والتقت الامواج الهادرةفى بعض اللحظات ، فكان لها هذا الاصطفاق العنيف .. ومع الصوت كانت تتكا مل ذراها ، هذه الامواج ، من هنا وهناك كأنما يمدها كل بحر على الارض ، وتتسامى لتكون منها قمة هذه الهضبة ... ما اسرع ما تنماع هذه الهضبة الزاحفة ، ما اسرع ما تأكل اطرافها من جديد القمة التي بنتها .. تنفرج عنها لتبتلعها ... ولا يبقى الا الصوت ، الضاج ، الصاخب ، اللجب ... ولكن هذا الصوت الذي ورث الاواذي والغوارب لا يضيع ... لانه ليس وحده ... انه ، لا اريد ان اقول حلقة فى سلسلة ... انه حركة اوتار تعبث فيها يد من عبقر لتقول كل شيء ، فى كل لغة ، وليعي منها كل انسان فى كل ارض ، ما يشاء ان يعي ، منذ كانت الارض حتى حين لا تكون . يا للموجات الصاخبة الضاجة !.. ما تفنى .. وان لها مثل هذا الحديث الخالد فى سمع الحياة والاحياء

*

وحين كانت كل موجة فى البحر تؤول الى هذا الصوت الهادر الضاج ، او هذا الحفيف المتمهل ... او هذا الهدير المزبد ... وحين كان يتلاقى ذلك كله او يتتالى ، او يتلاقى ويتتالى فى آن واحد ، فى تآلف رائع .. حين ذاك ، كان ينبع من جديد هذا « الهدوء » .. لا تدري كيف .. وتأخذ الموجة تنحسر .. وتنحسر الموجة التي بعدها .. ويبتعد البحر كأنما هو يولى .. ويولد شاطيء حلو .. ندي .. يولد مكسوا بالصدف وصغار الحصى ، ونثار الفضة ، وزبد الموج .. كأنه ابن سمراء من افريقيا باعت امه كل ثمار المانجو والموز وغلة هذا الذي سموه لها قطنا ، ومحصول الفول لتشتري له الزجاج الملون اسورة ، والصدف المنظوم وصغار الحصى الملموم ، عقودا وخلاخيل ... ولكن الشاطيء لا يكاد يولد ، لا يكاد يرى النور ، وتضحك له الشمس ، وينفض عنه الصدف والحصى ، حتى يتهدده البحر من جديد ، بالهدير البعيد يريد ان يغتاله ..

واستمع لهذا الهدوء النابت ، الذي اخضرت اطرافه ، فى هذه « السمفونية » الخصبة ... وارى فيه لذة الاصغاء ، وانصت اليه وارى له حلاوة الابانة .. واتخفف من كثير مما كنت اجد ، ولكنني لا افقده ، أحس انه معي يغنيني ، واني اغنى به .. ولكني اجده كأنما شذبت اطرافه وتلاقت زواياه وانضم الشبه منه الى الشبه والمثيل الى المثيل .. لم يعد هذه المجاميع الغنية المتراكبة المتراكمة منذ الازميل الروماني العريض الحاد الى الازميل المعاصر ، قبيل الحرب، الذي نفخت فيه كبرياء السياسة .. لا ، لم يعد شيء من ذلك كذلك ، وانما هو هذه الذكرى الحلوة ، الناعمة الهادئة، كهذا الهدوء الذي نبت مع المد المتراخي

*

الجني الذي كان فى اعماق البحر ، يعبث بأمواهه مدا وجزرا ، واصطفاقا واصطخابا ، ويجعل من عبثه هذه الموسيقى العجيبة ، لم يكف عن العبث لحظة منذ ان جئت هذا الساحل ... كانت الشمس قد اخذت ، مع الغمامات الصغيرة فى اعلى السماء ، ومع الشفق المضرج ، ومع السحابات المكفهرة ، الف لون .. كانت هي كذلك نشرت ذاتها موسيقى الوان .. ثم آذنت نغماتها ان تغنى لينطوي عليها الليل ... ومجموعات الطيور البيضاء خفقت اجنحتها فى التحليق ، وتدانت من الموج ، واستدارت هنا وهناك ، ووهبت موسيقى البحر وترا جديدا كان فى حاجة اليه .. والصياد الكهل الذي كان يتراءى لي من بعيد ، كان هو الآخر فى هذه اللوحة المتناغمة ... ومستوردو السمك الذين يقفزون الى المراكب الصغيرة القادمة ، يريد كل منهم ان يحتبس مركبا او يعتصر ربحا ، كانوا ينشرون حولي حديث المعدة والارقام والتحدي الفارغ ، والجهد المسلوب بالحيلة البارعة ، والعرق المسكوب على يدي الوسيط الذي لا يملك الا قوة الحديث ووساطة ما بين القرية والمدينة .. وأنا .. انا الذي جئت اصوغ وجودي هنا وجودا جديدا بعد ان رقصت اهدابي اسبوعا لا تفتر ، لابداع القرون فى فلورنسا وروما ... استطعت ان اتمثل كل الذي رأيت ، فى هذه الهدأة المنغمة ...

ولكن شيئين اثنين ظلا ، ولهما توقدهما وجلبتهما مع انطفاء الشمس وانصراف الناس .. ظلت لهما هذه الموسيقى الهادرة الصاخبة حينا ، والناعمة المترقرقة حينا ... شيئان لم يكفا : هذا الجني الذي ظل يدمدم او يثرثر او يضج فى اعماق البحر ، ويضفي الليل على موسيقاه اشباحا سوداء قلقة مقلقه ، مذعورة مخيفة .. وهذا الآخر ، هذا القلب ، هذه المواجد الداخلية ، مواجد الاعماق ، التي كانت تثور حنينا اليها هي الاولى ، وودا وسكنا اليها ، هي الثانية ، ودفء أبوة اليهما ، وتعلقا بهم جميعا !!

هذان العملاقان ظلا حيث هما لا يكفان .. ينسجان موسيقاهما التي لا تعرف الخفوت

اتراني حقا جئت هذا الساحل على كل هذا البعد من روما لاني احسست الحاجة الى ن أتمثل كل هذه العبقريات المضيفة التي يتوارى وراءها الزمن .. لا .. فتلك مغالطة من مغالطات الفن عن حقيقة انسانية كبيرة احيا بها ، لا احيا بغيرها .. حقيقة لعلها عندي ابعد آمالا من الزمن ، واغنى فى نفسي من عبقرياته .. الحقيقة اني جئت هنا لاني من هنا استطيع ان استشف ما وراء الافق .. استشف صورة الوطن والاهل وملامح ذوي الود والصفاء

وهل شيء آخر اشد صفاء من البحر وقدرة على ان ينقل هذه الصور والملامح ؟

سلام على اهل الود والصفاء والقربي ، من الساحل الى الساحل فى بحرنا هذا العربي

روما : اواخر اذار ٥٧ **شكري فيصل**